تراث الفكر العربي ودوره في بناء مجتمع حديث

بقلم الدكتور الحبيب الجنحاني

ان المجتمع العربي يمر اليوم بمرحلة تمخض وانبعاث ، وينزع جاهدا الى تبديل الاوضاع ، وقلب الهياكل ، وان هذا النزوع ، والسعي الثوري لتجاوز مرحلة تاريخية معينة ، والشروع في مرحلة جديدة لها معالمها الواضحة ، وأوضاعها الجديدة ، وقواها الوطنية الطليعية الحاملة لمشعل النضال المتجدد ، الذي تستلزمه المرحلة التي ترنو لها الانظار منذ مدة طويلة ، يتخذ الطابع القومي بمحتواه الانساني الاصيل لانشاء أمة متحررة ، متحدة ، توّاقة الى نهضة علمية وتقنية حديثة ، منطلقة في توقها هذا من الجوانب المشرقة الخالدة في تاريخ حضارتها الخصبة ، وفكرها البناء ، وتقاليدها العريقة ، ونضالها الخالد .

ستحاول هذه الدراسة تسليط أضواء على بعض الجوانب من موضوع التراث ، وصلته بالمرحلة التاريخية الجديدة ، فعلاقته بها ـ اذن ـ وثيقة ، ويدخل حتما في صميم معطياتها الحضارية .

قد يستغرب البعض أن يعالج الباحثون موضوع الكشف عن القيم التقدمية ذات النزعة الانسانية في تراث الامة العربية ، والانكباب على احيائه والتعريف به ، وهي تخوض معركة حاسمة ضد عدو مثلث : الامبريالية ، والصهيونية ، والتخلف .

ولعل أصحاب النظرة السطحية يرون في ذلك ضربا من ضروب الهروب من الواقع المأساوي الذي تعيشه الامة العربية اليوم .

اننا نفترق مع هؤلاء في الرأي كل الافتراق ، فهو اتجاه تعوز أنصاره النظرة الشمولية لمشاكل العالم العربي اليوم محاولين استغلال الهزيمة العسكرية للتنكر لكثير من قيم الامة العربية . انهم يتغافلون عن الاسباب الحقيقية للهزيمة ، انها أسباب حضارية ، وليست عسكرية .

ان الكشف عن الجوانب المضيئة في تراثنا يمثل ـ في رأينا ـ أحد موضوعات الساعة ، وهو وثيق الصلة بمعركة المصير العربي ، وليس هذا ناشئا عن عاطفة اعتزاز بالماضي وتصنيعه ، أو عن عدم وعي بنقاط الضعف الحقيقية في واقعنا ، بل نتيجة تحليل موضوعي لحاضر الامة العربية ، وتبني نظرة مستقبلية هادفة مدركة لمعالم النهضة العربية الحديثة . ان الانسان العربي ، عماد هذه النهضة التي نتحرق شوقا الى انطلاقتها العملاقة ، واكتمال معطياتها الحتمية ، هو وليد الماضي الذي لم يعد موجودا الا عبر حاضرنا الاليم ، وقوة الاندفاع نحو المستقبل .

ان عمر الوعي الذاتي العربي لا يتجاوز قرنا ، وهي فترة لا يحسبها في حياة الشعوب طويلة الا من لم يمسه الوعي التاريخي لتطور المجتمعات البشرية ، وبالرغم عن قصرها فقد كانت مليئة بالاحداث الكبرى ، غنية بالنضال البطولي ، وقد اتسم هذا الوعي الذاتي بسمات بارزة من أهمها :

ـ محاولة الانتقال من الركود في مظهريه الاقتصادي والاجتماعي الى التفاعل مع العصر .

ـ الفصل في مرحلة تاريخية معينة بين التحرر الاقتصادي والسياسي ، واعطاء الاولوية للثاني .

ومن الطبيعي أن يحتل التحرر السياسي المكانة الاولى في المرحلة الوطنية .

ومن المعروف أن كل احياء في العصر الحديث قد رافقه بعث للتاريخ القومي ، ونذكر على سبيل المثال فرنسا ، والمانيا ، وايطاليا. والتراث ركيزة التاريخ القومي ، ونؤمن انه يعسر علينا جدا الفصم بين التاريخ القومي للامة العربية وتراثها ، فهما ممتزجان لاسباب تاريخية موضوعية بصورة من الصعب أن نجد لها مثيلا في حياة الامم الاخرى .

ولم تشذ اليقظة العربية عن يقظات الشعوب الاخرى ، فقد رافقتها ، بالرغم من مواجهتها الصامدة لمخططات الاستعمار لطمس معالم الشخصية الوطنية ، وبتر الامة العربية عن ماضيها ، والاحتلال المباشر ، محاولات جادة منذ القرن التاسع عشر للعودة الى المنابع الاولى ، ومحاولة التوفيق بينها وبين اليقظة الجديدة ، وهي محاولات ذات نزعة سلفية في بداية الامر ، وقد كان لها الفضل رغم سلفيتها في تجاوز عصور الجمود ، والتحجر الفكري ، والرجوع الى انتاج الفكر العربي الاسلامي أيام ازدهاره وتفتحه .

ونلاحظ منذ الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ظهور تيارين في موقف النخبة من التراث : تيار سلفي ، وتيار تحرري . وقد غلب الطابع الديني على أصحاب التيارين في اهتمامهم بشؤون التراث .

وقد تبلور موقف النخبة المثقفة من التراث بعد الحرب العالمية الاولى ، ونستطيع ترتيب النخبة حسب موقفها من التراث الى ثلاث فئات :

أولا ـ فئة السلفيين الذين يرون صورة الحاضر والمستقبل في الماضي ، فرفضوا العصر ، ولاذوا بالتراث وحده يتغنون به فيبالغون ،

وهم متعلقون خاصة بجوانب المحافظة ، ومظاهر النقل في التراث ، ويتحرجون من تراث الفكر العربي الاسلامي التقدمي المتحرر . ولهذه الفئة تأثير قوي في صفوف الجماهير العربية الى يومنا هذا ، وموقفها من الجوانب الثورية المشرقة في تراثنا اكثر تزمتا وتحجرا من موقف السلفيين أيام ازدهار الحضارة العربية في القرون الوسطى .

ثانيا ـ فئة الرافضين للتراث باسم المعاصرة ، فهم يرون صورة الحاضر في المستقبل ، وفي المستقبل فقط ، فقد ارتموا في أحضان الآخرين واغتربوا ، وفرضوا على أنفسهم عزلة في الواقع العربي ، وهي فئة قليلة تشكو ضروبا من المركبات وليس لها ـ في نظرنا ـ أي تأثير في صفوف الجماهير خلافا لما يراه البعض . وسنعود اليها بعد حين .

ثالثا ـ فئة الموفقين بين التراث والمعاصرة ، فزودوا أنفسهم بكلا الزادين : الثقافة العربية الاصيلة ، وثقافة النهضة العصرية ، وحاولوا أن يخرجوا منهما ذلك المزيج الذي نطلق عليه « الثقافة العربية الحديثة » .

وقد قامت هذه الفئة ، وما تزال ، بدور ايجابي خطير بين صفوف النخبة العربية المثقفة ، حاملة مشعل النضال الحقيقي في ايمان وتفاؤل تقف في الصفوف الامامية من معركة المواجهة الحضارية التي تخوضها الامة العربية ، فهي لم تتقوقع داخل ماضي الاجداد ، ولم تبتر الشجرة من جذورها ، مفتخرة « بمعاصرة » الآخرين ، محاولة باسم ضرورة تقليد « الموضة » أن تبرر غربتها في واقعنا العربي ، وان تخفي انبتاتها .

ان المعادلة بين التراث والمعاصرة التي حلتها الفئة الثالثة ليست جديدة ، فقد حلها العرب من قبل حين التقت ثقافتهم وقيم فكرهم الديني الجديد بعد عهد الفتوحات بحضارة الساسانيين ، وثقافة الاغريق ، فلم يصب العرب آنذاك مرض مركبات النقص ، ولذا فلا نعثر على اثر لفئة الرافضين . فلما قبل المعتزلة ، والمتكلمون وفريق من الفلاسفة والمفكرين العرب عامة الثقافة اليونانية ، وحضارات الشعوب الاخرى ، لم يؤد قبولهم لتلك الثقافات الى التنازل قيد أنملة عن أي شيء من مقومات الثقافة العربية الاصيلة . وقد كان للسلفيين تأثيرهم القوي ، ولكن الفئة التوفيقية هي التي كتب لها النجاح في النهاية ، ونحن لا نشك انها فئة المستقبل اليوم ايضا .

ولزام علينا ان نشير الى تيار جديد برز في كثير من البلدان العربية غداة الحرب العالمية الثانية ، وأصبح لموقفه من التراث شأن في السنوات الاخيرة ، ونعني هنا التيار الاشتراكي ذا الطابع الوطني، فكثير من الناس لا يريدون أن يعترفوا بأن الفكر التقدمي العربي قد لعب دورا ايجابيا رغم حصار التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، والضغط السياسي المتواصل ، وقد ساهم في بلورة ملامح الشخصية القومية والفكرية ، ونظر الى التراث نظرة صائبة كانت منطلق موقف عدد كبير من المثقفين العرب اليوم تجاه العناصر التقدمية في التراث .

وأود أن أعود الى الكشف عن بعض النقاط في موقف الفئة الرافضة ، ولعل تسميتها بالفئة الهاربة أدق ، فمنطق نظرتها الانحدارية الى التراث منطق نظري هروبي .

يتستر الرافضون للتراث رفضا مطلقا وراء المعاصرة والتفتح وادعاء الجديد من بهرجة خلابة ، والثورة التكنولوجية ، وأصبحوا يتخذون من هزيمة الخامس من حزيران حجة على صحة مزاعمهم . ونجد في صفوف هذه الفئة في العالم العربي تيارا يقف وراءه بعض المسؤولين لتبرير ارتمائهم في أحضان العالم الرأسمالي باسم « المعاصرة » ، وحب « التقدم » ، وتيارا ثانيا يناصره بعض المثقفين بادعاء الانضواء تحت لواء بعض النظريات الاشتراكية ، والشعارات التقدمية في السياسة ، والادب ، والفن ، والاخلاق ، فهم يدعون ـ اذن ـ تمثيل « اتجاه اشتراكي » ، ولكنه في الحقيقة اتجاه انتهازي تحريفي ، اذ يحاولون من وراء « المعاصرة » ، و « التفتح » تبرير غربتهم الروحية والايديولوجية في الواقع العربي ، وجبنهم السياسي في الدفاع عن المبادىء الاشتراكية التي آمنوا بها يوما ما ، ثم حوّلوها الى شعارات انتهازية يساومون بها ذوي السلطان الرجعي للمحافظة على امتيازات تجمع بينهم وبين امتيازات الفئات الحاكمة . ويجعلهم موقفهم الشاذ هذا ، ولا سيما في بعض بلدان الغرب العربي ، يسيرون في درب يفترق كل الافتراق عن درب اليسار الوطني ليجدوا أنفسهم في خاتمة المطاف ـ عن وعي ، أو عن غير وعي ـ يسيرون في درب الفئات الحاكمة !!

والغريب ان أنصار هذين التيارين يرفعون شعار ضرورة تقليد البلدان المتطورة صناعيا في نهضتنا وتقدمنا ، ولكنهم يسكتون عن الاهتمام الكبير الذي توليه شعوب هذه البلدان لتراثها ، ولم تهمله أيام انطلاقها نحو نهضتها الحديثة ، وهي تعتز بكل ما يحتويه من غث وسمين . وحين تثار قضية التراث في هذه البلدان فمن أجل ايجاد أفضل السبل للمحافظة عليه ، والعناية بشؤونه ، وليس لمناقشة مبدئية لتحديد الموقف منه كما هو الشأن لدى بعض السياسيين والمثقفين في العالم العربي ، فهل ذلك ناتج عن ان التراث العربي تراث خاص يتسم كله بالسطحية ، واللفظية والرجعية كما يزعم البعض ؟ ان كل من يعرف هذا التراث يدرك ان أجدادنا لم يكونوا على صواب مطلق ، ولم يجددوا دائما ، بل أخطأوا ، واجتروا ، كما انهم لم يكونوا مخطئين بالاطلاق ، مجترين في جميع العصور . ولكن ما رأي هؤلاء الرافضين في تراث الشعوب الاوروبية في العصر الوسيط ، وهو تراث يطغى عليه الطابع الديني ، وتسيطر عليه في روحه ، ومحتواه ، وذوق مبدعيه الفني الكنيسة بقدسيتها المطلقة ، وطقوسها الشكلية المعقدة المتحجرة ، وهو مليء بأخبار الحروب ، ومآسي اضطهاد الشعوب ، وكبت الفكر الانساني الحر ، فجوانبه السلبية ليست أكثر انسانية ، وأشد اشراقا من الجوانب المتأخرة المظلمة في التراث العربي الاسلامي .

فما هي الاسباب الحقيقية الكامنة وراء موقف الفئة الرافضة لتراثنا العربي رفضا مطلقا ؟

ان هذه الاسباب تتباين بتباين الاتجاهات السياسية ، والاختلافات العقائدية ، ونكتفي بأن نريد التركيز على سبب رئيسي بارز يتلخص في مركبات النقص التي غرسها بالأمس الاستعمار القديم ، واليوم الاستعمار الجديد في نفوس الكثير من السياسيين والمثقفين في العالم العربي ، وندرك خطورة هذا العامل بالنسبة لمعركة المصير العربي حين نلمس تأثيره السلبي الذي أصبح يتزايد في صفوف الجيل الصاعد ، وهو الجيل الذي سيقود هذه المعركة ، ويحمل مشعل النهضة العربية الجديدة . ويتسرب هذا الخطر في كثير من البلدان العربية عن طريق الغزو التربوي والثقافي تمهد له السبيل شعارات « المعاصرة » السطحية ، تلك « المعاصرة » التي تكاد تنحصر في مظاهر شكلية ، و« تقليعات » فاشرة رغم بهرجتها .

ويستغل الاستعمار المقنع هزيمة حزيران ، ووضع الانسان العربي المأزوم اليوم ليغزو تلك المركبات ويركزها ، وخاصة في نفوس الشباب العربي ، وهكذا أصبح العالم العربي ـ في نظر الكثيرين ـ سجين عقدة النقص الحضارية .

ان هؤلاء الرافضين للتراث يحاولون ايهام بأن التراث باعتباره مظهرا سياسيا من مظاهر الاصالة متناقض مع المعاصرة ، وعائق للتقدم ، متخذين من المظاهر السلبية المتحجرة ، في تراثنا العربي ، حجة وبرهانا ، فيبالغون ، ويطالبون بقطع الشجرة من جذورها ، وهل نستطيع أن نحكم على طبيعة الغابة بشجرة واحدة ، أو حتى بشجرات ؟!

ومن البديهي انه ليس هنالك أي تنافس بين الاصالة باعتبارها

تعبر عن الخصائص العقلية والنفسية والوجدانية للامة ، والتراث يعد أثرى ينابيعها وأغزرها ، والمعاصرة ، فمعنى الاصالة انه يجب علينا في ضوء تجربتنا الاشتراكية الرائدة ، ومكاسب مسيرة الانسان المعاصر ، ان نصدر عن ذواتنا الحقيقية ، لا عن تجربة غيرنا ، دون انغلاق عن العالم من حولنا ، والمعاصرة أن نعيش تجربتنا الواقعية ، ونقارنها بتجارب الغير في مظاهرها الايجابية والسلبية دون أن نقطع الصلة بتراث الماضي .

ونعتقد أن هذا هو أنفهم المنطقي السليم للعلاقة الجدلية بين الاصالة والمعاصرة ، فهما عنصران متكاملان ، وليسا متناقضين ، وأسطع برهان على ذلك تجارب الشعوب التي نريد تقليدها في « معاصرتها » .

ولكن يجب أن نفرق بين المعاصرة باعتبارها « موضة » ، والمعاصرة باعتبارها ابداعا مستمرا ، وعملية جادة صعبة لخلق قيم جديدة أصيلة، فعوض أن يتنكر دعاة المعاصرة للتراث ينبغي عليهم الاستفادة من الجوانب النقدية ، والمضامين الانسانية في التراث العربي .

انه حل سهل ان نلقي تبعة الهزيمة على تراثنا ، وحضارتنا متهمين اياها بانها « حضارة لفظيه » ، ومتهمين أنفسنا بأننا شعب يتكلم أكثر مما يفعل دون ان نبحث الاسباب الحقيقية التي تحول بينه وبين الفعل الخلاق .

ان أولئك الذين يرون في التراث ، وفي الذود عن مقومات أصالة الامة العربية من حضارة ، وفكر ، ولغة ، وتقاليد ايجابية ، وقيم أخلاقية بناءة عائقا عن الالتحاق بركب حضارة العصر ، وفعودا عن النهضة التقنية يفرون من مواجهة المشكل الحقيقي الذي يعرقل مسيرة الامة العربية نحو التقدم والازدهار ، مشكل نظم الحكم في بلادنا ، وما يرتبط بها من مظاهر الجمود الفكري والاجتماعي ، وأنواع التأثير الخارجي سياسيا وفكريا . فما يزال نظام الحكم مشكلة المشاكل منذ بداية أيقظة العربيه الحديثة ، فقد شغلت المصلحين طويلا في العالم العربي الاسلامي منذ القرن التاسع عشر ، ثم انتصبت النظم الاستعمارية المباشرة في جل البلدان العربية ، فاختفت قضية الحكم المطلق القهري وأصلاحه ، وقد أصبح الحكم بيد الاجنبي الدخيل ، وبرزت قضية السيادة الوطنية ، والتحرر القومي ، وتلازمت فكرة القومية فيما بعد في الظلم العربي بفكرة الحركة السياسية ، واقترنت بالنسبة لبعض الاحزاب بالعدالة الاجتماعية والمساواة . ومن الطبيعي أن تقترن فكرة القومية بكل ذلك ، ولكن المشكلة تطفح فوق السطح من جديد غداة احراز البلدان العربية على استقلالها السياسي ، وعدم توصلها منذ الاستقلال الى اليوم الى حل لمشكلة نظام الحكم ، وعادت في اكثر البلدان العربية مظاهر الحكم المطلق ، وهنا يتأزم الوضع ويتعقد ، خاصة وقد نجحت اكثر الحركات السياسية في بعث الوعي القومي أثناء مرحلة التحرر الوطني ، وربطتها بالحرية السياسية التي أجهضت غداة الاستقلال ، ففقدت الجماهير حماسها ، ومما زاد الطين بلة ، كما يقولون ، تحجر مرحلة التحرر السياسي ، وعدم تطورها الى مرحلة التحرر الاجتماعي ، وبناء المجتمع الاشتراكي العادل الذي حلمت به الجماهير العربية خلال مرحلة التحرير ، فقد فنطت الجماهير ، وهبّت عليها ريح الملل والفشل ، ولمست بوضوح تنكر غالب الحكام لمبدأ الحرية السياسية ، وفصمه عن الشعور القومي ، وجذوة الحماس الوطني .

وأعتقد أنه لولا تحديات الامبريالية والصهيونية للامة العربية ، وشعورها بضرورة التوحد والتكتل لتستطيع مواجهة هذه التحديات ، متناسية قضية الحرية السياسية والديمقراطية ، صابرة على العسف السياسي ، ونير التضيم الاجتماعي لاصيبت فكرة القومية نفسها بنكسات ، ولاصبحت الجماهير تتلقى شعاراتها بدون مبالاة ، لانها أفرغت من محتواها الحقيقي ، وأصبحت لافتات عريضة تبرر بها النظم القائمة في كثير من البلدان وجودها .

وهل نستغرب بعد هذا بروز تيارات سياسية وفكرية في السنوات الاخيرة تقرن نضالها ضد الامبريالية والصهيونية قرنا عضويا بالنضال ضد مظاهر الحكم المطلق في البلدان العربية ؟

ان عدم التوصل لحل هذا المشكل المعقد يمثل عائقا أساسيا يعوقنا عن تحقيق نهضة عصرية ، ولحاقنا بركب المعاصرة الحقة ، وعوض ان نواجه المشاكل الحقيقية المتصلة بقضية نظم الحكم يلتجىء البعض منا الى القاء التبعة على التراث ، والذائدين عن مقومات شخصيتنا القومية الاصيلة .

وقد آن الاوان ان نتساءل عن مفهوم التراث ، وأصنافه قبل ان نحدد موقفنا منه .

ان التراث بمعناه الانساني الحضاري يدخل فيه ما وصلنا على مر العصور والازمنة من الانتاج الآثاري ، والادبي ، والاقتصادي ، والفني ، والاجتماعي ، والعلمي ، والديني ، والاخلاقي ، ويمكن ان نقسمه الى ثلاثة أقسام :

- قسم يتمثل في الثروة الكبرى التي تضمها المتاحف ، ودور الكتب في البلاد العربية والاجنبية من التراث العربي الآثاري ، والفكري ، والعلمي ، والادبي ، والديني .
- وقسم ثان يتمثل في المعالم الاثرية .
- وقسم ثالث تضمه العادات ، والتقاليد ، والفنون الشعبية ، والثروة الموسيقية .

وهذه الانواع مختلفة من التراث يتلقاها الخلف عن السلف كلا متحدا غير منفصل ، فالتراث يتجاوز أيضا فنون الآداب من شعر ، وأدب ، ولغة ، ويشتمل أنواع التراث المذكورة ، ولا سيما التراث العلمي ، والفنون الشعبية .

ان ضروب التراث هذه شكل في نظرنا أسس البناء الهيكلي للثقافة العربية .

وقد تأثر هذا التراث بحركة التاريخ العربي ، وبالصراع الذي عرفته ، ويحمل سمات البشر الذين أنتجوه .

ونلح هنا بصفة خاصة على اللغة باعتبارها حافظة التراث ، فازمتها من أزمته ، ومشكلة اللغة هي مشكلة التعبير عن الوجود العربي المعاصر ، والتنكر لها تنكر للتراث القومي ، وبالتالي تنكر لمقوم حساس من مقومات الامة ، فالبعض يتخذ من مشاكل التراث في الميدان اللغوي حجة للارتماء ، تحت تأثير الغزو الفكري واللغوي في أحضان لغة المستعمر ، فلا يمكن ان نتخذ طريقة استخدام اللغة من طرف المحافظين حيث يميلون الى الابهام ولايجاد حجة للطعن في اللغة القومية . ان الاتجاه التقدمي يستعملها بالطريقة الواضحة المباشرة لتتبع قضايا الحياة ، ومشاكل الواقع العربي والانساني . ونعتقد ان هناك من يرفض التراث لسبب وحيد يتلخص في الاعتراف بالتراث ، وحتى الاعتراف بالجوانب الثورية التقدمية منه فقط ينتج عنه حتما الاعتراف باللغة ، وباحيائها عن طريق الاستعمال اليومي في حياة الجماهير الشعبية . ان تراث الحضارة العربية الاسلامية يضم جوانب ايجابية وسلبية ، ولعل الجوانب السلبية طاغية لطول عصور الجمود ، والتحجر الفكري ، فما هو نوع التراث الذي ينبغي الاعتناء به ؟

انني أفرق شخصيا بين الكشف عن التراث ، والمحافظة عليه ، وبين الاحياء والنشر ، والتعريف الواسع . ان عملية الكشف والعناية يجب ان تشمل جميع أنواع التراث بمحتواه السلبي والايجابي معا ، فالجوانب السلبية تكشف لنا ايضا عن معطيات معينة ، وتساعدنا على فهم عصور تاريخية طويلة لا يمكن أن نتجاهلها لمجرد انها عصور انحطاط وتأخر . وسيقوم بعملية الكشف هذه ذوو الاختصاص

والدارسون الجامعيون

أما الاحياء والنشر ، واستعمال وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة لتعريف الشعوب العربية بتراثها فينبغي أن يقتصر على الجوانب التقدمية في تراثنا ، لان احياء التراث ليس هدفا في ذاته ، نكتفي منه بالفخر والمباهاة ، وانما عنصر ضروري لفهم حاضرنا ، ودافع لنا في تجربتنا الحاضرة ، ونضال الامة العربية من اجل تحقيق النصر في معركة المصير ، وبناء الغد المنشود .

ولما للفترة الحاسمة التي نمر بها من خطورة وارتباط احياء المحتوى الثوري في تراثنا بها ينبغي اعطاء الاولوية للعملية الثانية ، والاقتصار في مرحلة تاريخية معينة على احياء مضامين معينة يشتمل عليها تراثنا لصلتها المباشرة بسعينا لبناء نهضة حديثة شاملة .

ولا مناص للنخبة المثقفة العربية بالخصوص من تحديد موقفها تجاه التراث . ان موقفها يختلف ـ دون ريب ـ باختلاف انجاهاتها الفكرية ، وبتكويناتها الايديولوجية ، وانتمائها الاجتماعي .

وأود أن أبدي ملاحظتين هنا :

أولا ـ يجب ان نفصل بين التراث والرجعية الفكرية .

ثانيا ـ ان التحول السريع وتطور الاحداث بسرعة في المجتمعات العربية منذ الخمسينات بالخصوص جعل موضوع تحديد الموقف من التراث يطرح على المسؤولين عامة ، والمثقفين خاصة بشكل حاد وحتمي ، لان تحديد هذا الموقف مرتبط بالاختيارات القومية والفكرية التي نريد ان نرسمها للنهضة العربية الجديدة ، فبالرغم من انه كان تطورا تاريخيا وسياسيا بالدرجة الاولى فقد فرض على النخبة المسؤولة في العالم العربي أن توضح موقفها من التراث ، وهنا يبرز تياران رئيسيان :

ـ تيار رجعي محافظ يعيش في الماضي ، ويقدس التراث العربي الاسلامي ، ويجمد عنده فيسقط في عدمية وجمودية كاملة فكرا وسلوكا . وهو تيار يؤكد شكلية التراث ، ويضفي عليه مسحة القداسة ، فهو يضر بالتراث ، ويحجره ، وينفر الناس منه .

وينبغي أن نعترف بأن لهذا التيار تأثيرا كبيرا في صفوف الجماهير العربية ، فالرجعية تظهر في صورة الحامية للتراث وحدها لدى شعوبنا .

ـ اما التيار الثاني فهو تيار تقدمي مجدد يختلف في رؤيته التاريخية كل الاختلاف عن التيار الآخر ، فهو يسعى جاهدا لتحرير التاريخ والتراث ، وغربلته من مظاهر الخرافة والتزييف ، وتخليصه من نظرة التوثين والقداسة ، واخضاعه لمقاييس المنهجية العلمية ، فهو يقاوم النظرة الطوباوية للتراث التي تستقطب الجوانب المظلمة البلهاء دون انفلات ، ويندد بهذا الموقف الذي يريد ان يحول التراث الى تراث شكلي خال من محتواه الانساني .

ان المثقف العربي الثوري يتطلع الى تراثنا فكرا وحضارة من زاوية شمولية متحدة ذات أبعاد تقدمية تسقط من مضامينها كل مظاهر الانحدار ، والانغلاق ، والسوداوية ، وتؤكد على ما في تراثنا من شك ورفض وتمرد عميق ، وفكر عملاق ثوري ، وبذلك يصبح تراثنا وثيقة انسانية رائعة تساعد الانسان العربي على الصمود في مواجهة التحديات ، وتنير سبيله في مسيرته مع ركب الحضارة ، والاسهام في عملية تغيير الحياة ، والتأثير في سير عجلة التاريخ البشري .

ان أنصار هذا التيار يؤمنون انه لن يهز الجماهير العربية الكادحة الا صوت من نضال الاجداد يدعو الى فك الاغلال ، وكسر القيود ، الا صوت يدعو الى العدل والديمقراطية والثورة .

انهما تياران لا يلتقيان ، ولا يمكن ان يلتقيا .

ولكننا نجد مواقف متباينة تجاه التراث داخل التيار التقدمي نفسه ، وهو تباين متأثر بالانجاهات العقائدية ، والمواقف السياسية المختلفة ، ونعتقد انه يمكن ايجاد أرضية واحدة ، والاتفاق على المبادىء العامة رغم الفروق في العقائد تقوية لهذا التراث ، وتدعيما لتأثيره في الجماهير . والخطوة الاولى نحو هذه الارضية البعد عن « التقدمية المفرطة » التي تحذف الماضي والحاضر كليا ، وتجمد الرؤية في مستقبل يصبح صنما مقدسا يضحى على مذبحه الانسان ، فالايجابية المفرطة تفقد كيانها بتجاوزها الحد .

ان التيار التقدمي لفهم التراث يجب أن يدعم ، وأن تسخر له وسائل العمل ليتمكن من عملية فرز كبرى لابراز الجانب الثوري الانساني المضيء في التراث ، فهو الجانب الذي يعكس نضال الامة العربية ويمثل أنماطا من وعي الانسان العربي ، ويعبر عن الذات العربية وتجربتها ويحدد مميزاتها ، ويبرز شخصيتها وأصالتها ، فهذا العمل يساعد العقل العربي على التخلص من اغترابه نتيجة النظرة المتحجرة للتراث .

وهذه النظرة العلمية للتراث هي التي تستطيع الثقافة الثورية أن تعتمدها نقطة انطلاق في مسايراتها للمجتمع الجديد ، وفي تأكيدها على التواصل القائم بين الماضي والحاضر والمستقبل .

ان التاريخ العربي حافل باللحظات المضيئة المشرقة ، والعقل العربي لم يقل حرية ومنهجية عن حرية ومنهجية العقل الحديث ، فالشكية الديكارتية المنهجية عرفها الفكر العربي في فترات الحرية الفكرية والحوار . ان الانحطاط لم يبدأ الا عندما قام السيف مقام الاقناع والحوار .

ان الموقف العلمي النقدي من التراث هو الوحيد القادر على ابراز كل هذه الجوانب في تراثنا ، وهو الذي يستطيع المزاوجة بين الاصيل التقدمي فيه ، والجانب الانساني المشع من تراث الغرب على أساس انسجامه مع معطيات واقعنا ، ومعالم شخصيتنا .

وتجدر الاشارة هنا الى ضرورة الحذر في ابراز العناصر التقدمية الثورية في التراث العربي من الوقوع في مساوىء التحجر العقائدي، وتطبيق معايير غريبة عن المجتمع العربي ، واحياء مضامين منعزلة عن اطارها التاريخي والحضاري .

وقد يتساءل المرء ـ بالرغم مما كتب حتى الآن ـ عن مدى ارتباط احياء المضامين التقدمية الانسانية في تراثنا ببناء نهضة عربية حديثة .

فقد لمحنا الى قضية نعد من الاوليات المعلومة ، قضية ارتباط الحاضر بالماضي ، والمستقبل بالحاضر ، فالانسان العربي الجديد الذي سيساهم في بناء هذه النهضة الحديثة وليد الماضي ، ولا يستطيع ان ينفصل عنه ، مهما عشق المعاصرة ، وامتزج بها ، وأصبح أحد صانعيها ، وتغلب على مركب النقص تجاه الحضارة الصناعية .

ومن الطبيعي أن تعتمد النهضة العربية الحديثة على تراث الماضي ، لانها ليست نهضة علمية تقنية مجردة ، بل نريدها نهضة شاملة متكاملة تهدف الى خلق مواطن عربي حر ، مؤمن بقضاياه ، جدي في أفعاله ومواقفه ، متفائل بمستقبله ، معتز ببلاده وأمته ، بريء من مركبات النقص ، بعيد عن النظرة الشوفينية الضيقة ، والتعصب الاعمى ، انساني في تضامنه وشعوره ، منطقي في تفكيره ، علماني في نظرته الكونية . فهل نستطيع خلق هذا الانسان الجديد ، ركيزة النهضة المنشودة بمجرد رفع شعارات التكنولوجية ولافتات «المعاصرة» ، و «التفتح» ، وتجاهل المعطيات الحضارية ، والثورة التراثية ؟ فالمعطيات الحضارية هي التي تساهم في خلق الوعي القومي ، وتحديد مميزات المواطن الذي نعمل على تنشئته ، وهل نتصور مجتمعا صناعيا تطغى عليه ظاهرة التكنولوجيا دون وعي حضاري ، وارتباط بقيم وطنية ، ومراحل تطور تاريخي تشمل شتى الميادين .

ان خلق عقلية تقنية ، وبناء نهضة صناعية تتطلب أولا وبالذات روحا جدية ، وحياة متقشفة ، وثقة في النفس ، ولكن الاوضاع التي

تعيشها اكثر المجتمعات العربية بعيدة كل البعد عن جميع مقومات بناء مجتمع تقني متطور ، فليست هناك نظم تربوية دقيقة ناجعة ، واضحة الاهداف ، فعالة في وسائلها ، فهي تشكو مظاهر الحفظ والفوضى في التفكير ، وسيطرة العاطفة .

وقد جعل انتشار روح التشاؤم والقنوط كثيرا من الشباب العربي يفر الى الحياة السهلة ، والركض وراء مظاهر الحياة العصرية في مختلف شكلياتها ، ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان اكثر البلدان العربية لا تملك منظمات شباب تنظم وتحرك هذه الطاقات الجبارة الكامنة في نفوس الاجيال الصاعدة ، فهي منظمات فوقية تؤدي عملا روتينيا بيروقراطيا .

أما الثقة بالنفس فهي تكاد تكون مفقودة ، فليس كل مواطن عربي فهم الاسباب الحقيقية للهزيمة ، وليس في مصلحة كثير من النظم القائمة ان يعرفها ، وما دام لم يدرك الاسباب الحقيقية ، فلا يستطيع ان يتخلص من مركبات النقص ، وهي مركبات يغذوها الغزو التربوي والثقافي . اننا لا نستطيع أبدا ان نشيد نهضة صناعية بشباب يشكو العدد الاوفر منه هذه الازمات ، وأسرع فأقول : انني لا أحمل الشباب مسؤولية هذه الاوضاع التي يعيشها ، ان المسؤولية تتحملها الامة العربية جمعاء ، وقد عجزت منذ ما يربو عن قرن عن حل مشكلة المشاكل في بلداننا ، مشكلة نظم الحكم ، وايجاد أقوم السبل لتعبئة جميع القوى الوطنية الحية الصادقة المؤمنة بالتطور لتشييد نهضتنا .

ولا أريد ان اصل من وراء هذه الملاحظات الى ان مرحلة النهضة التقنية لم تحن بعد في المجتمع العربي ، او اننا عاجزون عن خوض معركتها ، بل أعتقد انه ينبغي على العالم العربي ان يكرس كل طاقاته المادية والبشرية للخروج من التخلف التكنولوجي ، والقضاء على مركب النقص تجاه الحضارة الصناعية ، ولكنني أومن عميق الايمان باننا لا نستطيع ان نتقدم بخطوات جدية ثابتة في هذا السبيل الا في نطاق نهضة عربية حديثة شاملة ، يكون الوعي الحضاري بمظهريه العربي والانساني نقطة انطلاقها .

ومن أجل بلورة الوعي الحضاري العربي ، ونشر ثقافة وطنية اصيلة تلتقي مع المحتوى الانساني الخالد في ثقافات الشعوب الاخرى نحتاج الى التراث العربي بعد تجديد نظرتنا اليه ، وغربلته من جوانب التخلف والزيف ، ومظاهر الجمود والتزمت والقداسة . وقد تمت محاولات جدية في الثورة على القدسانية واستعادة حرة للتراث، ففي الادب نجد استعادة طه حسين للشعر الجاهلي من خلال معايير الشكية الديكارتية المنهجية . ان نظرة التقديس هي التي ثار عليها طه حسين بصرف النظر عن النتائج التي توصل اليها ، وفي العشرينات ايضا ظهرت محاولة اخرى « الاسلام واصول الحكم » لعلي عبدالرازق، وفي الثلاثينات محاولة ثالثة « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد ، بالاضافة الى عدد من الكتب حول دراسات اسلامية مثل « تاريخ التمدن الاسلامي » لجرجي زيدان ، والموسوعة الاسلامية لاحمد امين ، وتبرز اثر انتفاضات سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٦ وانتهائها بهزيمة تجسدت في المعاهدة المصرية البريطانية ظاهرة تتمثل في هروب أكثر رواد الفكر الليبرالي ، وقد سبقوا رواد الفكر الاشتراكي في تقييم التراث العربي حسب مقاييس منهجية جديدة ، من مواجهة الواقع ، وخوض معركة جديدة بعد خيبة الاولى الى الانكباب على التاريخ الاسلامي ، ودراسته . وبغض النظر عن اسباب هذا الاهتمام فقد غربلوا الكثير فيما نشروه عن السيرة النبوية ، ونشأة الاسلام ، فظهرت عبقريات العقاد ، وكتاب « محمد » لتوفيق الحكيم ، وعلى هامش السيرة ، والفتنة الكبرى لطه حسين ، و « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل . وتمر بعد ذلك فترة فراغ في هذا المجال ليتصدى التيار التقدمي بعد هزيمة حزيران بالخصوص لرد الفعل الرجعي ، فيضع بعض جوانب التراث تحت مجهر النقد ، ويغربلها من كثير من مظاهر الزيف ليقدم للقارىء العربي بعض المحاولات الجريئة الهادفة ، من أهمها « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوي ، و « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح ، و « الله والانسان » لمصطفى محمود ، و « نقد الفكر الديني » لصادق جلال العظم ، و « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » ، وهي محاولات قابلة ـ دون شك ـ للنقاش في كثير من جزئياتها ونتائجها ، ولكن جانبها الايجابي يبرز في الاسس العلمانية المنهجية التي انطلقت منها في نقدها للتراث ، وازالة ما علق به من تزمت وتحجر .

والملاحظات الرئيسية في هذا الصدد هي :

اولا ـ ان الفكر العربي بتياريه الليبرالي واليساري لم يستطع خلال نصف قرن ان يخلق مدرسة واضحة المعالم والاهداف في اعادة النظر في التراث بصورة منظمة مسترسلة ، وهذا هو السبب فيما نلاحظه من فترات فراغ ، وفي ظهور محاولات جريئة من فترة لاخرى دون تواصل وارتباط . ولعل تفسير ذلك يعود أولا الى ما اتسمت به الحياة السياسية في العالم العربي من مد وجزر ، ولا سيما منذ الاربعينات ، وما اقترن بذلك من صراع فكري بين تيارين رئيسيين ، تيار رجعي محافظ ، وتيار تقدمي بجناحيه : الليبرالي واليساري ، وثانيا الى الانقسامات الايديولوجية التي تشكو منها النخبة المثقفة العربية .

ثانيا ـ ان العرب المسلمين لم تكن لهم نظرة التقديس والتصنيم للماضي في القرون الاولى من التاريخ الاسلامي ، فالمصادر الاساسية زاخرة بمواقف الحرية ، والنقد ، والشك ، والرفض تجاه سياسة الدولة الاسلامية في نشأتها ، وتجاه المسؤولين عن شؤونها . ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة في هذا الشأن تفيض بها كتب السلف أنفسهم . وأرى ان لهذه النقطة أهميتها ، لان أنصار نظرة تقديس التراث يدعون الذود عن التراث الديني بالخصوص ضد تطرق النقد والشك اليه ، فلا بد ان نعترف بأن التراث العربي الاسلامي مرتبط بالايمان الديني، ولكن التراث الديني نفسه يحتوي على كثير من الجوانب الايجابية المشرقة ذات النزعة الثورية الانسانية . والخطر يتمثل فقط في استغلال هذه الجوانب من فئات تنتسب الى تيارات رجعية لتدعيم نفوذها ، والمحافظة على امتيازاتها في العالم العربي .

ثالثا ـ ان الامة العربية لم تستطع منذ يقظتها الحديثة ان توفق بين الاعتزاز بتراثها ، والاعتماد على العناصر التقدمية الحافزة فيه وبين مقتضيات حياة معاصرة .

فلا يمكن ان تقوم نهضة عربية حديثة ووحدة تقدمية مصيرية ، أساسها العدل ، والحرية ، والاشتراكية ، مؤمنة بالتطور التقني ، جاهدة للمساهمة في الالتحاق بالثورة التكنولوجية دون ان تنطلق من مقومات ذاتيتها ، ومن اكثرها فعالية ، وأعمقها تأثيرا التراث بما فيه من مضامين قوية وانسانية .

ويجب أن يتجاوز التراث مرحلة تاريخية دعم خلالها قومية محلية ضيقة الى تدعيم مفاهيم قومية أكثر اتساعا ، وشمولا ، فهي القومية القادرة على قطع الاشواط بسرعة وطي المراحل ، وتحقيق النهضة الحديثة الشاملة ، وللتراث رسالته الخطيرة في تحقيق وحدة هذه النهضة الشاملة .

وآمل ان يكون قد اتضح من خلال هذه الكلمة ان قضية احياء المضامين الثورية الخالدة في التراث العربي ليست قضية نبش قبور

صفحة من مذكرات نائية

ضلالكَ غابٌ ،
واشجانك الغابرات ندامى
بقين على هدب العين رجع صدى ،
ومع الذكريات اتقاد جوانح ،
« ما من عزاء »
فقد هيل فوق الزهور التراب ،
واودى الهجير بعش الطفوله ،
ضاعت طمأنينة الامسيات العذاب ،
الربيع لهاث صحارى ،
ووعد الحبيب مصابيح ليل تطفأنَ ،
كل الدروب الى النار والجوع والهاويات ،
وكل التضرع ،
كل البراءه ،
كانا شراك الظلام ،
ونهر دماء ودمع ،
تعلمت أن تكتم الحزن والقهر ،
أن تبتسم رغم الجراح ،
وأن تتخطى قيودك في ساعة الوجد ،
كان الشتاء كفول ،
ينوش يديك ورجليكَ ،
دارك بين العواصف في كفة الرعب ،
أيامك القادمات صلالٌ ،
لكم كنت تسأل :
كيف ؟.. لماذا الجفاء ،
(ارتعاش المساء الذبيح ،
زفيف الرياح ،
العظام النحيلة والدائنون ،
ووجه الاب المتفصد ذلا ومسكنة
وارتباكا ،)
وتسأل : يا صورة في الاعالي ،
لماذا الجفاء ، لماذا الجفاء ؟
نيوب الخرافة والدائنون على موعد ،
كيف تشري لنا الام حاوى
ومن أين تشري لنا ثوب عيد ؟
لماذا الجفاء ....
ولكن تعلمت أن تتشظى بدون أنين
« من العار أن يكشف الناس فقرك ،
عريك ، جوع أشقائك الميتين »
وها هي أصفادك الداميات القدامى
على بعد عشرين عاما
بلا صدأ ، لامعات ،
وأشباح شوقك مثل النجوم تجوس لياليك ،
تلك الرحى لا تزال تدور ،
جني الليل فرو وخمر ونوم
الى ما قبيل الظهيرة ،
لكن جذوة حبك لما تزل تتألق ،
حسرات آبائك المرهقين
حقول لقاك الاخير .

سورية — **رضوان عقل**

الماضي ، أو هروب من الحاضر المأساوي ، بل هي جزء لا يتجزأ من معركة المصير . فقد عاشت الامة العربية هزيمتين ، هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧ ، سلطنا أضواء كاشفة على نقاط الضعف الحضاري في حياتها ، فالاولى بلورت نظرية القومية العربية ، وجعلت الثانية هذه القومية تعيش ازمة حادة ، خانقة ، ازمة اختيار حاسم ونهائي :

ـ اما الوحدة باعتبارها الطريق الوعر الوحيد مع الوعي الكامل بمشاكلها المعقدة ، وتناقضاتها الداخلية ، والقوى المعادية لها في الخارج ، وقدرتها على حل التناقضات الداخلية اثناء المسيرة والصمود في وجه القوى المعادية الخارجية . ونلح هنا على أهمية ذلك الوعي الكامل حتى لا تحدث النكسة ، وتخيب آمال حماتها : الجماهير العربية .

ـ او الانكماش والانهزامية بحجة اختلاف الاوضاع الداخلية للمجتمعات العربية ، وتضارب المصالح ، ولكن مصالح من : مصالح الشعوب ، أم مصالح الفئات الحاكمة ؟

واذا تم الاختيار على الطريق الثاني ، او فرض ، فان البلدان العربية ستعجز منفردة عن الوقوف في واجهة التحديات ، فتستسلم.

ان من الصعب حقا التغلب على تخلف قرون طويلة ، وأوضاع معقدة بقفزة ، او حتى بقفزات ، ولكن لنبدأ ، ولنعتمد في قضية المصير هذه على سلاح ناجح ايضا : التراث القومي ، ولنكشف على جوانبه التي تخدم هذه المعركة المصيرية الصعبة ، وهي جوانب غنية مشرقة قادرة على شحذ أداة المعركة : الحرية ، وصقل أسلوبها ، الثورة ، وتوضيح سبيل المواجهة الجدية لكل التحديات : الوحدة المرحلية (*) .

تونس — **الحبيب الجنحاني**

(*) محاضرة قدمت الى المؤتمر الدولي للتاريخ الذي انعقد في بغداد من ٢٥ ـ ٣٠ آذار الماضي .